

تاريخ شخصين



قصة: يوهو*

الترجمة عن الصينية يارا المصري

(1)

في شهر أغسطس من عام 1930، كان هناك صبي يدعى تان بو وصبيته تدعى لان هوا، جالسين على درجة سلم لا تغمرها الشمس. وكان خلفهما باب أحمر ضخم، مقبضه النحاسي على شكل أسد. وكان الصبي تان بو سيداً، والصبيبة جارية، وكانا يجلسان دائماً معاً. وكانت غمغمة ربة المنزل التي يرتفع صوتها خلفهما، تجعل الصبيبة تذهب جيئةً وذهاباً مرة تلو الأخرى. صبي وصبيبة يجلسان مع بعضهما البعض ويتحدثان بهدوء عن أحلامهما.

كان حلم تان بو دائماً عن البول. وكان يرى في حلمه أنه يبحث عن المبوولة في كل مكان. وكان يجلس قلقاً مضطرباً في جناح البيت الجنوبي. وكانت المبوولة الموضوعية في الحقيقة أمام السرير تختفي فجأة في الحلم. وكان البحث المستمر عنها في الحلم يصيبه بالتعب والإنهاك. بعدها يخرج إلى الشارع المزدهم بعربات الركشا، ويرى المتسولين يمشون بجانبه. وفي النهاية يفقد تان بو السيطرة على نفسه، ويتبول في الشارع.

ومن ثم يتلاشى الحلم. وتكفهر السماء التي على وشك أن يشقها ضوء الفجر. وكان الشارع في الحلم هو سريره في الواقع. وحينما كان يفيق من نومه، يشعر بأن ملاءة السرير رطبة ساخنة. وبعد أن ينتهي كل ذلك، يتغير المشهد بسرعة فائقة إلى آخر. فيفتح الصبي عينيه المضطربتين الشاردتين، ويسترجع بالمعنى تفاصيل الحلم الذي حلمه منذ قليل، إلى أن يصبح ذهنه صافياً في النهاية. ولذلك كان تجوُّله في الفراش يُشعره بالخجل الشديد. وما إن يتخلل الضوء الأبيض النافذة، يغلق الصبي عينيه من جديد، ويغرق في نوم عميق. «وانت؟»

كان يسأل بحماسة بالغة، وكان من الواضح أنه يأمل بأن تكون الصبيبة قد حلمت الحلم ذاته.

أما الصبيبة فقد قابلت هذا السؤال بخجل شديد، وغطت عينيهما بكليتي يديها، وهي الطريقة التي تعبر بها الفتيات في العادة عن خجلهن.

«هل حلمت الحلم نفسه؟»

تابع الصبي أسئلته. كانت ثمة حارة يغمرها السكون تمتد أمامهم، وكانت الجدران المرتفعة على الجانبين مبنية من القرميد الأسود.

ومنذ زمن غير طويل نبتت بين شقوق القرميد أعشاب خضراء خجولة، تتمايل بصمتٍ مع النسيم.

«تكلمي.»

أصبح حديثه حاداً. تضرع وجهها بحمرة، وأحنث رأسها وسردت حلماً مشابهاً لحلمه. كانت تحلم بالبول كذلك، وتبحث في كل مكان عن المبوولة.

«هل تبولت في الشارع كذلك؟»

كان الصبي متفعلًا بشدة. ولكن الصبيبة هزت رأسها، وأخبرته أنها وجدت المبوولة في النهاية.

هذا الاختلاف جعل الصبي يشعر بالخجل الشديد. فرفع رأسه ونظر إلى السماء أعلى الجدار، ورأى السحاب المنساب، وأشعة الشمس تلمع فوق أعلى جزءٍ من الجدار.

وفكر: لماذا تجد المبوولة دائماً، وأنا لا أجدها أبداً.

هذه الفكرة جعلت فؤاده يشتعل بالغيرة.

من ثم سأله: «هل تكون ملاءة سريرك رطبة عندما تستيقظين؟»

أومات الصبيبة برأسها.

لا تزال النهاية متشابهة.

(2)

في شهر نوفمبر من عام 1939، لم يعد الشاب تاو بو ذو السبعة عشر عاماً يجلس مع الصبيبة لان هوا ذات الستة عشر عاماً على درجة السلم أمام الباب. في تلك الأثناء، كان تان باو يرتدي بذلة الطلاب السوداء، ويحمل رواية لوشون وديوان شعر خو شي. ودائماً يكون حيويًا

مرتفع المعنويات ما إن يدخل باحة المنزل. أما لان هوا فقد ورثت مهنة والدتها وعملت خادمة، وترتدي سترة مطبوعة بزهور وتنفذ أوامر ربة المنزل.

وكان لا مناص من المحادثات العابرة. كان جسد تان بو ذا السبعة عشر عاماً ينضج بحماسة وعنقوان الشباب، فكان في بعض الأحيان يعترض طريق لان هوا فجأة، ويسرد فرحاً

جذلاً شيئاً من الأفكار التحريرية. حينها كانت لان هوا تطرق رأسها وتظل صامتة، فهما على كل حال لم يعودا طفلين بريئين. أو يمكن القول إن لان هوا بدأت تعي حقيقة أن تان بو سيدها. ولهذا فقد كان تان بو

الغارق في مشاعر المساواة والحب المتبادل غير مدرك بأن المسافة بينهما تتباعد شيئاً فشيئاً.

في اليوم الأخير من شهر نوفمبر من ذلك العام، كانت لان هوا تعادتها تنظف ذلك الأثاث الأحمر القاني بقطعة قماش. أما تان بو فكان

يجلس أمام النافذة يقرأ كتاب «طيور شاردة» لطاغور. وكانت لان هوا تحاول قدر استطاعتها عدم إصدار

أي صوت أثناء التنظيف، وكانت ترنو إليه بنظرات مرتجفة بين حين وآخر. وتأمل ألا يعكر ذلك الهدوء أي شيء. ولكن القراءة يصاحبها دائماً بعض الإرهاق. وكان توقفه عن

القراءة يعني أنه يود الحديث. في السابعة عشرة من عمره، كان يلحم دائماً بأنه في سفينة عابرة للمحيطات، تتواهب على الأمواج

استيقاظه رغبة شديدة غريبة بالسفر.

وبدا الآن يحكي لها ما يشعر به من ضيق في الأحلام التي تراوده مؤخراً.

«أريد أن أذهب إلى يان أن». قال لها.

تطلعت إليه بحيرة، وكان واضحاً، أن يان أن لا تمثل لها سوى فراغ. ولم يكن في نيته أن يجعلها تفهم أكثر من ذلك، وكان بحاجة الآن إلى أن يعرف تفاصيل الأحلام التي تحملها مؤخراً. فقد ظلت تلك العادة مستمرة منذ عام 1930.

عادت إلى خجلها السابق. من ثم

بعد أن سمعها تان بو تذكر أيضاً حلماً حلمه في طريق عودته إلى المنزل. وكانت لان هوا في الحلم. ولكنها كانت صبيبة كالسابق. «لقد حلمت بك أيضاً»، قال تان بو. في تلك اللحظة أدرك تان بو أن لان هوا التي أصبحت صارمة للغاية، لا تود إهدار وقتها في الحديث عن جمالها في الماضي. أما بالنسبة لحلمه، فإنه سيحتفظ به لنفسه للأبد.

(4)

شهر فبراير من عام 1972. عاد تان بو الحزين البائس والذي اتهم بمعاداته للثورة إلى المنزل. كانت والدته قد فارقت الحياة، فعاد للاهتمام بإجراءات الدفن والجنائز.

حينئذ كانت لان هوا قد كبرت في السن. وكانت لا تزال بلا عمل كما كانت من قبل. وفي اللحظة التي دخل فيها تان بو المنزل، كانت لان هوا تغسل مفارش بلاستيكية، وتعتمد على ذلك في كسب العيش.

كان تان بو يرتدي سترة قطنية سوداء بالية، وما إن مر بجانبها، حتى توقفت لبرهة، وافترت شفاته عن ابتسامة مرتجفة.

وما إن رآته لان هوا حتى همست بـ «أوه».

ولهذا فقد سار إلى غرفته مطمئناً. وبعد مرور بعض الوقت، طرقت لان هوا باب غرفته، ثم سألته: «هل تحتاج إلى شيء؟»

وعندما رأت الغرفة مرتبة ومنظمة، لم تدر ماذا تقول.

وقد كانت لان هوا هي من أعلمته بخبر وفاة والدته. هذه المرة، لم يكن لدى الاثنان حلم يتحدثان بشأنه.

(5)

شهر أكتوبر عام 1985. عاد تان بو إلى المنزل بعد تقاعده، وكان يقضي يومه بالكامل يتشمس في باحة المنزل. كان لا يزال يشعر بالبرد في فصل الخريف.

وكانت لان هوا عجوزاً، ولكنها كانت بصحة جيدة. يحيطها الكثير من الأحفاد والحفيدات. وتقضي معهم مدة طويلة، ولم تكن تشعر بالتعب. وفي الوقت نفسه تدخل وتخرج من المنزل، وتقوم بالأعمال المنزلية.

بعدها وضعت طستاً من الملابس على البلاط، وبدأت في دكها.

رَزَّ تان بو عينيه، ونظر إلى حركة ذراعها وكيف تتحركان بقوة. وفي غمرة انغماس يديها في غسل

الملابس، قال لها بحزن: إنه يلحم مؤخراً بأنه يمشي على جسر، ثم فجأة ينهار الجسر. وحين يدخل المنزل، يسقط قرميد السطح فوق رأسه.

لم يصدر عنها أي رد فعل، وأكملت غسل الملابس.

سألها تان بو:

«هل حلمت حلماً مشابهاً؟»

«لا، لم أحلم.»

هزت لان هوا رأسها.

* يو هوا: ولد في عام 1960 في مدينة هانتشو بمقاطعة تشجيانغ في الصين. عمل طبيب أسنان لمدة خمس سنوات ثم تحول إلى الكتابة عام 1983، لأنه وكما قال لم يحب أن «ينظر إلى أفواه الناس طوال اليوم». ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية. ونذكر منها: رواية «على قيد الحياة»، رواية «الأشقاء»، ورواية «باتع الدم». حصل على العديد من الجوائز منها: جائزة Grinzane Cavour Prize عام 1998، وجائزة جيمس جويس عام 2002. وهو أول كاتب صيني يحصل على هذه الجائزة. ويعتبر يو هوا أحد أبرز الأسماء في الأدب الصيني المعاصر إلى جانب كتاب مثل مويان وسوتونغ.